الشيخ طاهر الجزائري

تأليف الدكتور عدنان الخطيب

منشورات معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة

— ١ —

تظل شخصية الشيخ طاهر الجزائري احدى الشخصيات البارزة في حركة النهضة في بلاد الشام .. ان اثره لا يقتصر على الدروس التي القاها ، والحلقات التي عقدها ، والكتب التي خلفها ،والاعمال التي قام بها ، وانما يتجاوز ذلك الى عديد من الشخصيات التي اثّر فيها توجيها او تنشئة او رعاية .. وذلك هو الذي دفع الاستاذ محمد كرد علي ان يقول عنه : « استاذنا العلامة الشيخ طاهر الجزائري في هذه الديار كالاستاذ الامام محمد عبده في مصر».

والدكتور عدنان الخطيب معنيّ ، فيما هو معنيّ به من دراساته بمعرفة هذه الحقبة من تاريخنا ، لان حياتنا الحاضرة في كثير من وجوهها ليست الا نتيجة عنها واثرا لها .. ومن ذا الذي يستطيع من جيلنا ـ هذا الذي يحيا كما تعودنا ان نقول ، ازماتنا العربية الكبرى ـ أيا كان اختصاصه الاصيل ، ان ينصرف عن هذا التاريخ وان يغمض عينيه عن هذا الواقع وان يتوجه مطمئنا الى بحوثه النظرية ، وهو يحس الضربة اثر الضربة تكاد تهز وجوده ، والنكبة وراء النكبة تريد ان تذهب بهذا الوجود ؟

ما من عجب اذن ان ينصرف الدكتور عدنان الخطيب الى شيء من التاريخ ومن تاريخ الفكر بوجه خاص .. ولكنه لا يريد التاريخ احداثا متتابعة او سنوات متلاحقة ، او اسماء كبيرة من هذه التي تطفو على السطح ، وانما يريد من التاريخ جانبه الاخر الذي يتصل بروح الامة وفكرها ، في حركة الفكر وفي نبض هذه الروح، في الاراء التي داخلتها ، والمذاهب التي وردت عليها ،والاهواء التي تخطفتها ، والاتجاهات التي ذهبت بها ، والاسماء التي كان لها في توجيه هذه الروح اثر ، وفي هدايتها وصيانتها او في الانزلاق بها وانحرافها عمل .

ولهذا آثر أن يقف عند شخصية الشيخ طاهر الجزائري وعند هذه الطائفة من الذين تابعوه او تأثروا به مثل محي‌الدين الخطيب وسعيد الباني وسليم الجزائري ومحمد كرد علي ، لانه كان لهم في حركة النهضة العربية وفي سير الحياة الفكرية في بلاد الشام اثر اي اثر . فعرض لاطراف من سيرتهم ، وجلا جانبا من افكارهم ، وعرض لمواقف من مواقفهم ، ووضع هذه السيرة وهذه الافكار في مكانها من حركة الجماعات العربية ليستبين القارىء ما الذي كان وراء الاحداث ، وليستجلي طائفة من العوامل الخلفية التي كانت تتحكم بها او توجهها .

— ٢ —

وقد اوضح الدكتور عدنان الخطيب منهجه هذا منذ البداية . الكلمات الاولى التي قدم بها لكتابه نمت عن هذا الاتجاه وكانما كانت تريد ان تهز القارىء ، ان تثيره ، لتقول له انك لن تجد اسماء وتراجم ، ولن ترى احداثا وصورا ، وانما ستواجه طائفة من الحركات والتيارات كان لها اثرها الكبير فيما بعد .

المقدمة القصيرة اذن ذات الاسطر المعدودات لم تكن تقديما للكتاب فحسب ولكنها كانت وقوعا على اعماقه ، وكشفا لطرف من الستار عن هذه الاعماق ، ودعوة من المؤلف الى تعميق النظر واجتلاء الآفاق .

لهذا كان الدكتور عدنان يقول في المقدمة : « انا لا أترجم ،في هذه المحاضرات ، لرائد من رواد النهضة العربية فحسب ، ولالطائفة من أعلام تلامذته ، يمثل كل واحد منهم في حياته وآثاره العلمية نهجا خاصا في دروب هذه النهضة .. بل انا اصور مع هذا وذاك واقعا مرت به اكثر الاقطار من بلادنا العزيزة ، وكانت تعصف بها خلاله عوامل خفية اورثتنا بعض ما نحن فيه من فرقة واختلاف رأي ، وانتهت بنا الى حال لا تسرّ الا الذين يكرهون العرب والاسلام .

هل تؤلف هذه العوامل الخلفية منطلق الكتاب وغايته كذلك ؟

اجل .. لقد كان الكتاب مرتهنا بهذه العوامل . بداءته منها وعودته اليها . نظرته الاولى الى الشخصيات والاحداث ، ونظرته الاخرى الاعمق الى هذه العوامل : اشارة اليها حينا ، ودلالة عليها حينا اخر ، او تبصيرا بها في كل حين .

ومن اجل ذلك لم يلبث المؤلف ان تابع في التقديم الحديث عنها، هذه العوامل ، ورأى انه « قد قلّ في كتابنا ومؤرخينا من جرؤ على التصدي لدراسة تلك العوامل او حتى على الاشارة اليها ».

الا يمثل هذا دعوة حارة واغراء مغريا بمتابعة الكتاب ؟..

ولكن المؤلف لا يقصد الى هذا الاغراء قصدا ، ولم يكتب المقدمة لهذا .. ان عمله كله ـ فيما يبدو لي ـ بعيد عن ان يكون بابا من ابواب الحديث والبيان او العمل التاليفي الذي لا هدف له .. انه ـ وهذا هو الذي يميزه ـ عمل هادف بالدرجة الاولى .. هدفه ان يزيح هذا الستار الذي لم تمتد اليه يد المؤلفين .

وواضح ان الاستاذ المؤلف أحس ان الذي يقدم عليه لن يكون سهلا ولا يسيرا ، لن يكون حلو المذاق في الفم ولا هين الوقع على النفس ولا سهل التقبل في الواقع .. ولكنه آثر الحقيقة ، مغلفة احيانا بعض تغليف ـ على السكوت ، ومرارة الدواء على خدر الداء. (وغدا ، قد أجد من ينكر عليّ تدوين بعض الحقائق في هذه المحاضرات ، لان مرارتها سيصعب تقبلها عند بعض الناس وعذري في ذكرها ـ وقد حان الوقت للافادة من عبرها ـ ان مرارة الدواء لا تسوغ حجبه عن أعز الاعزاء) .

— ٣ —

ولكن ما هي هذه العوامل الخفية التي أراد المؤلف ان يلفتنا اليها ؟

ان المؤلف لا يضعنا مباشرة بعد ، امام هذه العوامل ولا يقفنا عليها وجها لوجه . انه اثر هذه المقدمة التي نقلت لك اكثر عباراتها ، يمضي فيتحدث في عدد من الفصول عن شخصيات وظواهر:

في الفصل الاول يتحدث عن العهد العثماني في بدايات النهضة ، يسوق ذلك وكانه المدخل .

وفي الفصل الثاني يتحدث عن الشيخ طاهر ، وبخاصة عن هؤلاء الذين التقوا به وتحلقوا حوله : محي‌الدين الخطيب ، ومحمد كرد علي وسعيد الباني وكاظم الجزائري .

وفي الفصل الثالث يتحدث عن الشيخ طاهر الرجل : نشأته وهجرته ، والمعلم : وظائفه الاولى.

وفي الفصل الرابع يتحدث عن الشيخ طاهر المصلح : عن التقائه بمدحت باشا وعن جهوده الاصلاحية

وفي الفصل الخامس يتحدث عن الشيخ طاهر الرجل السياسي.

وفي الفصل السادس يتحدث عن الشيخ طاهر الرجل المفكر ، ويثبت نماذج من رسائله ، ويكتب ثبتا بمؤلفاته .

وقد يتداخل بعض من هذه الجوانب في بعض ، وقد تؤثر ان يكون مكان بعض الفقرات من هذا الفصل في مكان اخر من فصل

غيره ، وقد يكون لك في النظر الى بناء العمل كله ، رأي مصدره اعجابك بالمادة الخصبة التي انطوى عليها والتنبه الحاد الذي كان يتخللها .. ولكنك لا تملك وانت تقرأ الكتاب ان تفكر في ذلك وان تتوقف عنده .. فالمتعة التي يسوقها اليك والافاق التي يقودك اليها ، تدفعك الى ان تتجاوز ذلك .. لا لان الاسلوب ـ بناء وصياغة وتفاصيل ـ هو الرجل وليس في الوسع ان نحمل انسانا على ان يكون انسانا اخر .. لا لهذا فحسب ، ولكن لانك تمضي مشدودا الى متابعة التساؤل عن هذه العوامل الخفية « التي اورثتنا بعض ما نحن فيه اليوم من فرقة واختلاف » .

وستجد بعض هذه العوامل في الفصل الخامس في حديثه عن اساليب الكفاح السياسي وعن الجمعيات السرية من بين هذه الاساليب . وفي رأي الاستاذ المؤلف ان الماسونية وهي واحدة من هذه الحركات السرية ـ كانت أخطر ما ابتلي به هذا الوطن وافساه عليه في الفترة الاولى من كفاحه ثم في الفترات التي تلت بعد ذلك .

ومصدر هذه الخطورة فيما يبدو من حديثه ـ وان كان لا يواجه بذلك مواجهة واضحة ، ولا يوجه اليه توجيها حادا ـ ان هذه الماسونية تركت آثارها السيئة من نحوين كبيرين .

احدهما : السرية التي تجلببت بها . والسرية في العمل السياسي الذي يتناول الكيان والجماهير والمستقبل والوجود تقود الى أخطر النتائج ، لانها تحجب الحقائق ، وتسير الناس وراء سراب متخيل ، ما اكثر ما يكون خادعا ، وتباعد بين الناس وبين الوضوح الذي هو شرط الالتزام ، وتضلل الملايين حين تلبس عليها امرها .

ان هذه السرية لا يمكن ان تقود الى خير ، وافتراض صفائها ونقائها وخلوصها يتعارض مع سريتها ، ويجب ان نفرق دائما بين السرية في العمل وبين السرية في الفكرة .. ولقد كانت الماسونية مضاعفة السواد : في الفكرة والعمل معا .

والثاني : ان هذه الماسونية استخدمت ابشع استخدام في تفتيت المجموعة العربية الاسلامية . لم تكن اصلاحا اجتماعيا مرسوما، ولم تكن حركة سياسية واضحة ، ولم تكن لها جذور في الماضي ولا أصول منه ، ولم تكن نبعة من النبعات التي تنبثق عن واقع الحياة والمجتمع ، ولكنها اجتلبت اجتلابا لتكون ركوبا من هذه التي ركبها تنازع السياسات الاستعمارية الفرنسية والانجليزية استتبع بالتالي انقسام الماسونية الى وجهين سياسيين .

والحق ان هذا الفصل من الكتاب ـ على تكامل الفصول واستواء ما بينها في غايتها القريبة والبعيدة ـ يوشك ان يكون تجسيدا لما أراد المؤلف ان ينبه اليه في التقديم ، وان يرشد اليه في الفصول الاولى ، وان ينتهي اليه من غاية في الكتاب .

ـ ٤ ـ

ان المؤلف يقودك في هذه الرحلة الممتعة تقرأ سيرة هؤلاء الرجال النماذج .. تلقاهم فتانس بهم وتفيد منهم .. تتابع خيوطا من خيوط حياتهم ومشاهد من مشاهدها .. تسعدك آراؤهم حين يعرض آراءهم ، ويثيرك تنبههم حين تدرك اننا انما نقول الان مثل الذين كانوا يقولون من قبل نصف قرن أو يزيد .. ويغمرك الانفعال حين ترى ان العرب اليوم حيث كانوا بالامس، بل لعلهم ـ اذا راعينا خطى الشعوب الاخرى والتقدم العلمي ـ كانوا خيرا مما هم اليوم .. انك تفرح اذ تتكشف لك شخصية مثل شخصية الشيخ سعيد الباني واذ يفجؤك اسلوب مثل اسلوبه ، وتروعك نظرات الشيخ طاهر الرائدة ، وتأخذك المواقف الصلبة من مواقف سليم الجزائري ، وتستعيد ان كنت من الذين رأوا الاستاذ كرد علي واستمعوا له وقرأوه ، صورته وحركته وتفكيره .

ولكن هذه الرحلة الهانئة ، التي تشعرك بكثير من المتعة وبكثير من الفائدة ايضا ، رحلة هادفة تريد ان تستقر بك عند خلاصة الاحداث وخلاصة المواقف وخلاصة الرجال .. تريد ان تضعك عند الروح في حركة المجتمع لتثير عندك الاحساس بان هذه الروح العربية لم يبق لها صفاؤها ، ولم تحتفظ بسيرتها .. داخلتها هذه الاشياء التي وردت عليها ، وقدمت لها افكارا واتجاهات لم تكن في حاجة اليها .. كان وراء هذه الافكار والاتجاهات سياسات اجنبية ضربت الاتراك بالعرب ثم فتتت العرب ، ثم جاءت تضرب قطرا بقطر ، ثم اخذت بعد ذلك تجهز على العرب جميعا بالصهيونية .

ـ ٥ ـ

المشكلة الكبرى في هذا الكتاب ان صاحبه تحدث عن اشياء خطيرة من خلال الحديث عن الشيخ طاهر . أكان المؤلف يقصد قصدا الى هذا الخط المزدوج : خط مدرسة الشيخ طاهر من نحو ، وخط الحياة العربية المعاصرة من نحو اخر ، ليترك للقارىء ان يربط بينهما كيف شاء وحيث شاء ؟

اغلب الظن ان اقامة الكتاب على هذا النحو لم تكن عملا عفويا، وانما كانت عملا مدروسا ، كما نقول اليوم .. واذن فقد كان الدكتور الخطيب يريد ان يلقي بهذه الاشياء في ذهن هذا الجيل الجديد عن طريق هذه الطائفة من الاسماء والاحداث والظواهر ،وان يزرع عنده احساسا أعمق بالقضايا ، ونفاذا ابعد الى ما وراءها .

ولكن اذ تطمئن الى هذا الذي كتبه المؤلف لا تجد غنى ان تتساءل: السنا في حاجة الى قدر اكبر من الوضوح ومن الصراحة في دراسة هذه الاشياء ؟ ما الذي يحول بيننا وبين ان نكشف الغطاء، ان ننزعه نزعا عن كل هذه الملابسات ؟ هل تسمح البقية الباقية من الوجود العربي ان نعيش على اشياء من الرموز والتلويح ؟

عذر المؤلف انه ليس المؤرخ ، المنقطع للتاريخ .. عذره انه وصل الى هذه الاشياء عن طريق اخر غير التاريخ المباشر .. ولذلك عرض لها هذا العرض . أتراه العذر الذي يقنعك ؟

ـ ٦ ـ

وبعد فهناك اخطاء الطباعة قد لا ينجو منها كتاب .. ان جهد المصحح لا ينهض دائما كفاء عناد بعض المطابع .

ولو كان لي ان اتمنى للكتاب في طبعته الثانية شيء ـ غير ان يتابع صاحبه تحطيم جدار الصمت حول هذه البدايات في حركتنا العربية وفجواته فيه ـ لتمنيت :

١ ـ ان ترتب رسائل الشيخ طاهر ترتيبا تاريخيا ، ما كان ذلك ممكنا .

٢ ـ ان يكون هناك جدول بالاحداث البارزة ، مقترن بالتاريخين الهجري والميلادي ، في اخر الكتاب .

٣ ـ ان يكون هنالك سرد للمصادر .. فلا غنى عن ذلك في مثل هذا البحث للذين قد يتابعونه او يتابعون بعضا من قضاياه.

٤ ـ ان يكون هناك فضل تعريف ببعض الاسماء وببعض الكتاب.

ان كتاب الدكتور عدنان الخطيب ، وان كان اكثر تركيزه على الحركة العربية في بلاد الشام ، يظل عونا للانسان العربي المثقف اين كان ، حين يريد ان يعرف من قضايا بلاده ووطنه ما يجب ان يعرف . انه نقطة مضيئة في حياة هذا الجيل الذي غم عليه الامر وأوشكت ان تنقطع به الاسباب بالماضي البعيد جهلا به ، وبالماضي القريب شكوكا حوله .. وانه كذلك تأكيد رائع على خصب التربة الطيبة لهذه المدينة الطيبة التي انبتت مثل هؤلاء الرجال الطيبين الذين كانوا عصبا من اعصاب النهضة وروحا من روحها .

دمشق — شكري فيصل